الفنان الفوتوغرافي الليبي طارق بوبكر الهوني:

عين تنحاز الى الطبيعة وشوارد الحياة اليومية

محمد الأصفر*

■ هذا هو طارق الهوني كما عرفته.. شاب طيب هادئ الطباع.. يضحك لأبسط إمزوحة.. يجلس بجانبك صامتاً أكثر الوقت.. ينصت إلى الحديث باهتمام وتركيز.. من يطلب منه خدمة يخدمه بحب دون مَنٍّ.. مرّة قلت له أريدك أن تلتقط بعض الصور لابنتي الرضيعة مهجة فجاءني في البيت والتقط شريطا كاملا ثم حمضه وأعطاه إلي.. وكلما زار واحته هون عاد لنا بالتمر الشهي الخالي من الدود والسوس.. لا يصدع رأسك بالنقد أو التنظير للفن أو النميمة ذات الدم الثقيل.. دائما آلة تصويره بجانبه أو في صندوق سيارته الخلفي.. يعبر عن نفسه بتلقائية.. مرة جاءني غاضبا محتجا.. : رئيس مجلس الإبداع أوقف لنا الإضافي.. نحن فنانون.. نصرف على الفن من قوت اطفالنا.. من المفترض أن نمنح علاوة ابداع لا أن يوقفوا عنا الإضافي البسيط.. مرة أخرى التقيته حزينا.. : آلة تصويري سقطت مني وتكسرت.. والأخرى أعرتها لصديقي الشاعر صالح قادربوه السائح في دمشق فاحتاج إلى المال فباعها.. لقد باع سلاحي في سوق الحميدية بدراهم معدودة.. لو كنت أنت يا أصفر لتسولت وما بعت الكاميرا.. وأجبته: نعم أنا لا أبيع الكتب ولا أبيع آلة تصوير أو أي شيء مساعد للإبداع.. وليس لدي مشكلة في تسولّ المال.. لكن أبدا لن أتسولّ الكلمات.

سرعان ما دبّر طارق في مال عن طريق السحب واقتنى آلة أخرى وحلف ألا يعيرها لأي كان.. وواصل فنه في التقاط المناظر التي يحس أنها فعلا تناديه وتعانقه.. دائما تجده متحمسا للفن.. في جرابه يتوالد الجديد فالجديد.. هذه صور لبنغازي في الليل.. هذه للصحراء.. هذه للواحة.. هذه للسماء.. هذه لحفل تأبين كاتب او فنان كبير.. وهذه مسرحية ميلودرامية لممثل واحد قدير.. ليس لديه أي وقت يضيعه في غير هوايته.. لا يصوّر المشاهير ولا يركض وراء أشباه الفنانات.. يحب التقاط الشارع.. والناس العاديين الهامشيين.. والأصدقاء.. بدأ حياته كمصور رياضي.. يتابع الكرات السريعة الفالتة من أيدي الحراس والمعانقة شباك المرمى.. التقط عدة لقطات نالت اعجاب الجماهير الرياضية واستفادت من ريعها دكاكين التصوير في الفندق البلدي والرويسات.. فهذه مراوغة مدهشة للاعب موهوب استطاع بها ان يتجاوز خط ظهر بأكمله.. وهذا تصد فني من مدافع موهوب لمهاجم خطير.. وهذه فورة جماهير تصيح وتصفق وتتعالى قبضاتها بالنصر وحناجرها بالهتاف لليبيا التي سجلت هدف الفوز في مرمى المنافسين.. وهذه قصاصات ورقية مختلطة ببالونات استقبل بها المشجعون فريقهم الليبي الوطني الجميل.. وهذه ألعاب نارية أطلقها الجمهور في سماء الملعب لتختلط بؤرها وألوانها مكونة مزيجا بهيجا من الضوء الملون المتدرج الظلال.

ومع ميلاد مجلس تنمية الابداع اتجه الفنان طارق الهوني إلى التصوير الفوتوغرافي غير الرياضي منضما إلى واحة فناينا المكرسين.. الترهوني.. السيفاو.. العريبي.. التومي.. الشاردة.. وغيرهم.. فساح عدة سياحات في صحراء اكاكوس وواحات هون واوجلة وجالو والجغبوب باحثا عن لحظة الصفر التي ينشدها وهي لحظة نفخ الروح في زر آلته الولود.. فالتصوير الفوتوغرافي هو فن زمني

سبائك الطين الذهبية (القدس العربي)

قبل أن يكون مكانياً.. ولحظة الجنون الابداعية فيه هي لحظة ضغط الزر لالتقاط الروح الإبداعية المتجسدة أمامك وبعثها في حياة المشاهد جنة أو ناراً أو أي شيء حي مؤثر.. فهو يلتقط الصورة القصيدة.. الصورة نافرة الهدوء للروح.. الصورة التي تجعلك تبوح وتعترف لها بحبك.. أو إعجابك أو حتى عداوتك لها وكرهك لها ولعنتك.. أي أنه يلتقط شيئا مؤثرا مستفزا ومحفزا لذات المتلقي الذي يستقبل العمل بدوره حسب ذائقته ونفسيته ومرجعيته.. وفي مدة وجيزة تصدرت صور طارق أغلفة المجلات ومواقع النت واستخدمتها الجرائد وسائل جمالية لما تنشر من مواد.. وفي لقاء مع الفنان المخضرم فتحي العريبي سأله المحاور عن فناني الفوتوغرافيا الشباب.. فذكر من ضمن من ذكر طارق الهوني.. والفن دائما يحتاج إلى شجاعة وجرأة ونشاط وتضحيات أيضا.. فكلما توفر مبلغ من المال لدى طارق صرفه على فنه.. فها هو ينشيء موقعاً جميلاً شاملاً أدبياً فنياً رياضياً ويسميه (عين ليبيا) ويقف معه كل الأصدقاء فينشرون فيه ويتصفحونه ويشهرونه ويستقطب هذا الموقع الكثير من الاقلام العربية المبدعة فعلى صفحاته لا مكان للركاكة والنصوص الضعيفة، والنشر فيه يخضع لمواصفات ابداعية راقية فلم يتسلل إلى هذه العين أي بريق ميت مثلما هو حادث الآن في المواقع الليبية في الداخل والخارج العاملة الآن، وها هو يسافر إلى القاهرة لحضور معرض الكتاب والتقاط الصور.. وهو يشارك في كل معرض يدعى إليه.. أي أنه في حالة استنفار فني مستمر.. وأجمل معرض أقامه بصورة متواصلة ويومية هو معرضه الدائم داخل إيتيليه الغزالة (مقهى عين الغزالة).. فعلى جدران مقهى عين الغزالة تلتصق صور طارق وتواسي الزبائن وهم ينفثون السجائر ويشربون القهوة ويتابعون المباريات والنشرات الإخبارية وتشاركهم أفراحهم عندما يتعالى ضحكهم وترتفع وتيرة فرحهم.. فمعرضه بعين الغزالة هو معرض مهم ودائم فرواد المقهى متجددون وكل من يدخل المقهى يتأمل الصور ويتفاعل معها ويسأل صاحب المقهى أحمد عن ملتقطها فيقول انه الفنان طارق الهوني فيجيبه اعرفه.. هو الذي صور لنا الأهداف الجميلة.. هناك من يرغب في الشراء لكن طارق لا يبيع.. يعز عليه ان يستبدل صورة بحفنة دينارات.. فكل من يدخل المقهى يرى ويتمتع ويغادر ليأتي غيره.. صور مشاهدتها تمثل الحياة والموت.. الدخول والخروج.. هناك جمهور آخر وهو جمهور نوعي.. فأكثر الأدباء والفنانين الليبيين والعرب يرتادون هذا المقهى الذي ورد ذكره في رواية شرمولة والواقع في ميدان الشجرة الشهير.. فيتأملون اللوحات ويبتسمون دلالة الاستحسان ومنهم من يبرز شفته السفلى ممتعضا ويعلق بتعليق ينتقد فيه هذه اللوحات.. اللوحات تخبر طارق عن من شكره ومن ذمه وطارق تعلم أن هذا الأمر جميل.. فالكمال لله.. هكذا يقول له أبوه الأديب ابوبكر الهوني.. الذي كان كاتبا كبيرا في الستينات وبداية السبعينات.. يكتب المقالات الهادفة بأسلوب أدبي.. مقالات تهدف إلى خير المواطن وتنشر الوعي.. ولا تتملق أو تهادن.. قرأت بعضا منها في اعداد قديمة في جريدة الحقيقة ثم قرأت كتابيه الصادرين حديثا عن الدار الجماهيرية للنشر.. هذا الوالد شجع ابنه وعلمه قبول الرأي الآخر بصدر رحب.. وعلمه الاجتهاد وبذل المجهود لأنه لا شيء يأتي إليك وأنت نائم أو جالس تضع كرعاً على كرع.

صور الفنان طارق الهوني كثيرة ومعظمها يحمل ابعادا جمالية رغم التقاطها العفوي وعدم التخطيط المسبق لها.. أي معظمها التقطت بواسطة الإلهام الذي يغزو القلب فجأة ثم يختفي.. ومن خلال ثلاث مجموعات مسجلة لدي في حاسوبي اخترت هذه الباقة من اللوحات وهي معبرة عن تجربة طارق التي اعتبرها تجربة طازجة مجنونة ترسل وميضها في كل اتجاه قابل للتفاعل.. لم تولد من رحم دكاكين التصوير الفوتوغرافي أو التقاط صور الندوات ومهرجانات الخطابة وبطاقات البريد أو تجهيز الاستوديو بمكملات قبل البدء في تصوير اللقطة على طريقة اضحك حنصوّر.. لم تولد تجربته من الصحافة وعملها الروتيني الممل.. بل تجربته عملية سياحة داخل رحم الحياة والتقاط فجائي لكل ما يفاجئه من دهشة..

تجربة طارق الهوني تجربة ثرية رغم حداثتها ننتظر منها ان تتطور اكثر لتصل الى عمق الصورة الفوتوغرافية ذات الفكرة والمغزى والتعبير والنور النافذ إلى أعماق الروح.. هذه الروح التي سنراها حيّة ترقص وتعزف وتغني وتلعب على كثبان الرمال وفي أزقة شوارعنا العتيقة وعلى ملامح طفلاتنا البريئات.. تجربة تحتفي بالماضي لتحضره الينا وبالحاضر لتوصله إلى نقطة بدئنا التي نجهل زمنها لكننا نعيشها ونقبض على ذروة عنفوانها.

*كاتب من ليبيا
mohmadalasfar@yahoo.com

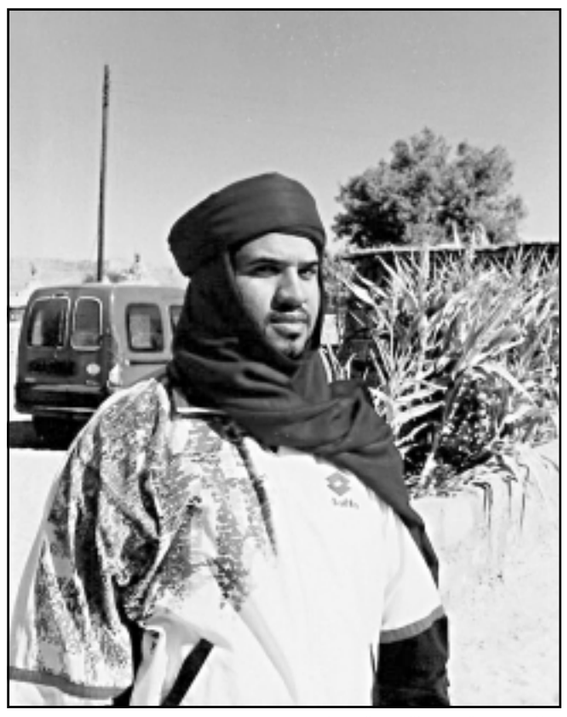

طارق بوبكر الهوني (القدس العربي)

نخلة في واحة الجغبوب (القدس العربي)

تداعيات

الاتجاه شرقاً هو الحل

د. عبد العزيز المقالح

■ كشف الجدل المثار حول زيارات بعض القادة العرب الى الصين واليابان والهند وماليزيا وغيرها من اقطار الشرق الاسيوي اهمية هذه الخطوات الاقتصادية والسياسية التي تأخرت كثيرا وكان لا بد ان تتم منذ وقت بعيد، نظرا لأهمية تواصل الوطن العربي بامتداداته التاريخية تلك التي تعود الى آلاف السنين، ومنذ كان الجليد يغطي اوروبا وكانت أمريكا في حكم النسيان قارة مجهولة تسكنها الاشباح والاساطير وتبتلعها ظلمات الخرافة وما يرتبط بها من حكايات تثير الرعب في قلوب اشجع الشجعان!

ويأتي هذا الاهتمام بالشرق الذي نحن جزء منه ومن تاريخه بعد دورة وربما دورات كاملة من العذاب والاستعباد مع الغرب الظالم المستبد المحتكر والذي ضرب من حول الوطن العربي ستارا حديديا من التخلف والانكفاء بعد ان نجح في تحويله الى حظيرة تحت الاحتلال المباشر وغير المباشر. ولا مخرج للوطن العربي من هذا المصير الا بالاتجاه شرقا وبتوجيه النقد القاسي لكل دولة عربية تواصل التعامل الاقتصادي والثقافي مع الغرب الظالم المتحيز لاعدائنا والمتآمر على العودة بناء الى عصور الهمجية بما يؤججه في نفوس البعض من احقاد وضغائن اثنية ومذهبية.. الخ.

ويجدر الاعتراف بانه لم يعد في مقدور عرب القرن العشرين ان يتجاهلوا الشرق وهم جزء منه، الى هنا يكفي استجداء الغرب الذي لم يجن العرب من وراء العلاقة الطويلة والمشبوهة معه سوى الاحتلال والاذلال واستنزاف ما كان على ظاهر ارضهم وما في باطنها من ثروات كانت كفيلة بان تجعل هذا الوطن الكبير واحة للتقدم والازدهار الاقتصادي والعلمي والثقافي، ليس ذلك فحسب بل زاد هذا الغرب ورمى هذا الوطن الكبير بالداهية الدهياء ان زرع في قلبه كيانا غربيا معاديا مهمته تدمير كل محاولة للتطور والانعتاق من رواسب التخلف التي تنشر اظافرها الحادة في جسد الامة المتهتك المريض.

ان في الشرق دولا اعظم من دول الغرب العظمى وفيه من مظاهر التطور ومعالم الحضارة ما يدهش الغرب نفسه، وما قد يجعله في المستقبل القريب يزحف صاغرا وطالبا العون ان لم يكن قد بدأ في فعل ذلك. ويا حسرتاه على السنوات الطوال التي ذهبت من حياة الادباء العرب والشعراء منهم بخاصة وهم يبحثون في رماد الحداثة الغربية عن أقباس تضيء لهم سبيل الابداع الجديد في حين يزخر الشرق بكنوز ابداع ما تزال جمراته تضيء وتتوقد، ولا تزال صلوات انبيائه وحكمائه قادرة على ان تغسل قلب الانسانية من كل ما علق بها من غبار الانانية والتميز العنصري والحقد على الاخر ورفض التعايش معه، فضلا عن غياب الرؤية المتعالية المغرورة لدى انسان الشرق الذي احتفظ من قديمه الاصيل بكم هائل من التواضع والشعور بالآخر وبكرامته الانسانية.

اننا لا نريد ولا نرغب ان ندخل في عداء من اي نوع مع الغرب. لكننا بعد ان يئسنا من صداقته واكتشفنا بدقة ومن خلال التجارب الطويلة والمريرة انه لا يمكن ان يكون صديقا للشعوب ولا حتى لنفسه بدأنا نتلمس طريقنا الصحيح الى حيث الاصدقاء الحقيقيين هؤلاء الذين شربوا مثلنا من كأس الاستعباد والاحتلال. وهذا الطريق ـ لو وعت قياداتنا العربية ـ هو الاسلم في صد الخطر والانجع في كسر غرور القوة التي تفتقر الى الحد الادنى من التعقل والضمير.

تأملات شعرية:

لم يبق في اوراقهم
ما يستثير لذة القراءة.
ولم يعد على وجوههم
من ألق الشعر
و لا من شجن البراءة.
فيمموا ـ يا اهلنا ـ شرقاً
هناك، حيث يورق النهار
حكمة،
والليل لا تجف عن جدرانه
الاضاءة.

قص

سيدة السادسة

زياد خداش*

[الى وليد الشيخ طاعنا في الشعر والحب]

«ثمة حياة هنا لي، تركتها في زمن سابق، أسلمتها لغبار التاريخ ومضيت سعيدا الى طفولة حزينة»، هل حلمت بهذه العبارة منذ اشهر؟ او قرأتها في كتاب فلسفة او رواية لا اتذكر اسمها او مضمونها. طيلة هذه الاشهر وأنا احوم حول هذا المكان، فندق قديم، يقع في طرف رام الله، محاط بحرش كبير، والحرش نفسه محاط بسياج عال، ثمة بوابة كبيرة، للفندق تقع امام ساحة سيارات قرى غرب رام الله، حول هذا الفندق استأجرت غرفة صغيرة تحت الارض تقريبا، لأكن دقيقا واقول ان ذهني وجسمي هما اللذان استأجرا هذه الغرفة، ذهني يريد وقتا صافيا بعيدا عن حركة البشر ومعارك السائقين، ليكتب مدنه ويرسم شهقاته، اما جسمي فيريد ساعات حميمة من البكاء الضروري والاسترخاء بعيدا عن كراسي المقاهي الثرثارة، لا علاقة لعقلي وروحي وذاكرتي بهذه الغرفة. قبل اربعين عاما كنت شيخا هرما، ولدت من بطن امي هكذا بوجه مجعد وجسم مكرمش مليء بالثآليل ومترهل، وجه بلا اسنان، ولكن بشارب ضخم مليء بالشيب، وبشعر هائل على الصدر المتعب العظمي، اهلي عانوا طويلا من حزن ورعب واحراج، والجيران اعتادوا على التلصص على شيخوختي الطفلية الغريبة، الصحف المحلية والعالمية كتبت بعناوين ضخمة: في فلسطين ثمة طفل شيخ ولد، حالة غريبة لم تشهدها البشرية من قبل، جنود الاحتلال اقتحموا بيتنا ذات ليلة، خطفوني عنوة من حضن امي الخائف، امضيت في هداسا اشهرا وانا أخضع لتحاليل وفحوصات دم وعظم وجينات وغيرها، احد اخوالي اقترح ضاحكا على امي ان أعرض في بيت زجاجي امام زوار يدفعون رسوما، بكت امي، هرب ابي الى الحديقة، يداري غضبا ممزوجا بخوف، كنت ادرك من انا، واحمل داخلي ذاكرة تتجه رويدا رويدا لذوبان وانكماش، شخص العلماء حالتي، بأنها طفرة في حركة الجينات، لم يعرف سببها بعد، اما الناس فقد اختلقوا اشاعات غريبة لحالتي، منهم من قال ان تاريخ عائلة امي مليء بالذنوب الخلقية والتشوهات الذهنية، وان احد اخوالي، ولد برأس جمل، وجسم على شكل جذع شجرة قبل مئات السنين، وان احدى خالاتي ولدت وهي تحمل على خاصرتها قطعة لحمية كبيرة على شكل قطة، اما احد اجدادي من ناحية امي فقد خرج من قبره بعد اسبوع من دفنه،اتجه الى وديان قريبة، واختفى هناك. مضت حياتي الهرمة شيئا فشيئا الى طفولة معكوسة، في شبابي كنت اعرف اني عشت هنا في هذا الفندق، عشت كنادل فقير يعيش في مخيم قريب، نادل يراقب بحسرة احذية النزلاء الفاخرة، نادل مغامر ضبطته ادارة الفندق يسرق زوج حذاء نادر النوع من غرفة سائح خليجي، لم اعد نادلا فقد طردت منه منذ سنوات، عدت اليه في هيئة مقلم اشجار شهواني يتعامل مع الشجر وكأنها نساء يحتجن الى اصابعه لتعتدل في اجنحة نهودهن موازين العقل والجنون، الصحو والمطر، لم استطع ان افسر لمدير الفندق شكوى امرأة شجرة، ضدي، قالت المرأة الشجرة اني وبينما كنت اقلم بشفاهي زوائد لحمية في خاصرتها، صرخت بقوة لتكتشف اني كنت اقضم لحمها واوزعه بعد ان اصبغه بالقهوة على شكل شامات سوداء حول تخوم ظهرها ورقبتها.

غادرت هذا الفندق الى الابد بعد ان اكتشفت ادارة الفندق حيل صوري وخداع اقنعتي، لكني عدت اليه في مراهقتي عاشقا اقابل صديقتي قرب سوره، ولأني انحدر الى سنواتي الاولى التي لم اعشها بعد، فقد حسمت امري بخصوص اقتحام الفندق الذي اغلق ابوابه منذ ثلاثين عاما، حلمت مرة اخرى ان لا مجال ابدا لدخول الفندق والتعرف هناك على اثاري وبقاياي، الا بوجود امرأة، قلت لصديقة : لا تخافي، سنتنكر في هيئة صحفيين، نبحث عن آثار ماسونية هنا، ارتعبت الصديقة، لم توافق، فقررت ان اتخلى عنها نهائيا، أوضحت لصديقة اخرى : لا دور لك سوى ان تمشي معي وتبتسمي لصاحبة الفندق وهي امرأة عجوز تسكن وحدها في غرفة علوية، ترددت الصديقة، رفضت في النهاية، لا استطيع ان افهم عملية اقتحام الفندق الا بوجود سيدة، انثى بذاكرة مليئة بالخيانات والرجال الرمليين والمخلفات المؤلمة من رسائل وقبلات فزعة، وفناجين قهوة لم يكتمل شربها بعد، ومناديل مقاه ورقية وكتابات على جدران الفنادق البعيدة . ما زلت ابحث عن السيدة المقتحمة، سيدة تنظر الى معنى الاقتحام على انه زيارة مفاجئة وجريئة لذاكرتها الاخرى، ذاكرة القديم الذي يضحك على التاريخ ويعيش في تاريخ خاص مخبأ في حياة كامنة تمشي وتتحرك، ذاكرة المكان الانثى.

من يجرؤ على القول ان الفندق ليس امرأة كانت هنا تمتلىء بالنزلاء والزائرين المبتسمين وفجأة رحل الجميع بطريقة فظة ولم يعودوا، تاركين خلفهم روائحهم وملابسهم الداخلية، واشياءهم الصغيرة وحركاتهم، مثل خطوات خافتة وحافية وسريعة متجهة الى الحمام على بلاط الغرف، في الصباحات الشتوية، قبل الاندساس اللذيذ في الفراش مرة اخرى استكمالا لنوم رائع لم يكتمل، ضحكات نسائية طويلة معلقة على اطراف الشراشف الزرقاء القديمة، قبل او بعد اعصار جسدي متقطع او متصل، بقايا سلطة ولحوم مفرومة مبعثرة على اطراف طاولة، جوارب رجالية مرمية في الزاوية كل جورب على حدة، ديوان شعر لنزار قباني، ورق ابيض مسطر عليه مكتوب عليه ارقام هواتف وحسابات غامضة لشركات، قميص نوم نسائي مرمي باهمال رائع وانيق على طرف كرسي.

اوه ما اكذبني كيف عرفت اني كل ذلك؟ هو هناك بانتظار ذهولي وعيوني المفتوحة على سعتها، اهي سرابات المخيلة الوحيدة المحشورة في عرائها الخصب والعميق؟ لم اقتحم الفندق بعد، ما زلت في عملية بحث عن السيدة، التي سميتها سيدة السادسة، انها تلك التي توقظني منذ سنوات كثيرة عند السادسة لتقول لي همسا: انهض ايها السمين فالشمس رائعة هذا الصباح.

بعد عدة سنوات سأصل الى طفولتي التي لم اعشها بعد، سأحتاج الى حليب امي التي ستكون قد جاوزت التسعين عاما، الان هي كائن خرف في ملجأ عجزة، الهي من سيشتري لي العاب الطفولة؟ اي حضن سأرتمي فيه حين يضربني ابن الجيران الشرس؟؟ مات اخوتي كلهم واخواتي بعد شيخوخات طاحنة، بقيت طفلا وحيدا غريبا، يعيش في بيت ايتام على صدقات المحسنين، لا يزورني سوى الصحفيين والعلماء ويحرسني شرطيان طاعنان في الاستياء والنعاس، سأمضي ما تبقى لي من شباب بالحوم حول هذه المرأة التي تشبه فندقا، يمر الناس عن الفندق ولا يرونه، لا احد يكترث له، فهو مسور باحكام، والحديقة الوحشية التي تحيط به، لم تمسسها يد منذ عشرين عاما، الصبار ينمو بحرية، يزحف فوق السور، دون ان تعوقه حكمة فلاح، العشب الطري الاخضر يتجه انى اراد دون ان تقف امام عمائه المبصر ارادات البشر السخيفة، شجر السرو والصنوبر يتطاول منحرفا حينا عن خط الجذع الى حيث سطوح الفندق، وتتوزع اغصانه هنا وهنا بشكل عشوائي، يموت بعضها ويحيا الاخر دون تنسيق او تضامن.

نوافذ الفندق مغلقة منذ ثلاثين عاما كما قال لي ابي الذي اعتاد تمضية وقت فراغه مع اصحابه هنا في الحديقة.

الهي الا تتعب النوافذ من الاغلاق؟ الا تشتاق الى هواء يجتاح رطوبتها؟ اي سر ينام بهدوء خلف هذه النوافذ؟

اي حيوات كانت هنا؟ اي هواجس ومخاوف وافراح سريعة ونشوات والام معدة وروح نسيها نزلاء الفندق في الغرف الصغيرة ثم ماتوا في بلادهم البعيدة قبل ان يسترجعوها؟

سيدة السادسة رفضت ان تكون سيدة اقتحام فهي تقول ان دورها هو اقتحام صباحاتي وغيبوباتي، حسبها ذلك كما قالت. ما زلت احوم حول النوافذ، منحدرا رويدا رويداً نحو براءتي وبياضي ولثغة فمي.

ومدينتي التي بلا فنادق، بلا نساء السادسة، بلا بقايا. من هذا الشيخ الهرم الذي يجلس على حجر امام بوابة مغلقة لفندق قديم ؟ الناس يتساءلون باستمرار، هم لا يعرفون قصة هذا الكائن الذي حيرت تركيبته الزمنية والجينية علماء العالم، السمكة لم تنزل بعد عن احدى شجرات حديقة الفندق المجنونة، سمكة، ليست ثمرة ليست طائرا، انها سمكة، نعم سمكة اني اراها بوضوح، اعرف ان احدا لن يصدقني وهل صدقني احد حين قلت امام الصحافة اني اعيش حياتي للمرة الثانية؟ نفس التجارب التي عشتها، نفس الاشخاص الذين قابلتهم، نفس الاماكن، ما بال السمكة لا تتحرك؟ في الماضي اثناء عملي كنادل كنت اراقبها تقفز من غصن الى اخر، للمدن السادسة دائما ايقاع خاص في قلبي، رام الله مدينتي السادسة التي حلمت بها قبل ان اولد، كنت خلية وعي عمياء ونائمة في جارور زمن ما، كنت احس اني سأقذف من هذا الجارور نحو مدينة اسمها رام الله، وانني سأبدا حياتي عجوزا هرما ثم اهبط الى مطار براءتي ثم اعود مرة اخرى عجوزا، لم اكن اعرف ما حكمة ذلك ؟ حتى اللحظة لم اعرف، لكن صديقتي التي تخليت عنها فيما بعد قالت انها تمتلك حاسة سادسة، والدليل على ذلك انها تنبأت لي بأني سأعيش حياتي مرتين، ضحكت عليها مع اصحابي ومضينا الى حياتنا نثرثر ونأكل والاصحاب مصرون دائما على انهم يحلمون بي، وان حقيقتي مشكوك فيها، لطيفة صديقتي هذه، وهي بالمناسبة الصديقة السادسة، التي اخوض معها تجربة غريبة، تتلخص في افتعال حرب صغيرة بيننا،وفي تغيير اماكن لقاءاتنا، بحيث نلتقي كل شهر في مدينة جديدة، آخر هذه المدن كانت اريحا، جلست معها في منتجع سياحي تديره هي هناك، طويلة بامتلاء خفيف وسمراء، التهمت معها كعكتين بالشوكولا، صنعتها خصيصا احتفاء بي، كانت كلما انحنت لتلتقط شيئا من الارض تضع يدها اليسرى وهي تبتسم على مجرى نبع ارنبيها الكبيرين، خوفا من عيوني واحلامي التي كانت تأكل اوراقها ومكتبها ولوحاتها وقهوتها ومدينتها.

قلت لرجل مر عني : يا صاحبي انظر السمكة متجمدة، لا تتحرك.ضحك الرجل وقال لصديق له يقف في الجوار، مسكين هذا الشيخ الطفل، انه يتوهم رؤية اسماك على الشجر هذه المرة هاهاها، الغريب اني لا اغضب، فقد تعودت على سخرية الناس وحملقتهم في شكلي وكلامي وحالتي.

سيدات السادسة اختفين، لم تعد هناك سادسة، لم يعد زمن، او تاريخ، فأنا اعرف اني اشتغلت نادلا مرتين، والغريب اني حاولت ان اصحح في تاريخ حياتي واعدل من اخطائي التي ارتكبتها فلم انجح ابدا،فمثلا قمت مرة اخرى بسرقة زوج الاحذية الفاخر، وطردت بسبب ذلك، مشيت في نفس الاماكن والشوارع، قابلت نفس النساء والرجال، ندمت نفس الندم، اشتهيت نفس الاشتهاء، لكن شيئا واحدا اختلف ولا اعرف لماذا، هو اني رأيت نفس السمكة تصحو بقوة مفاجئة بعد موت طويل فوق احد اغصان شجرة السرو الضخمة، عينا السمكة واسعتان، مخيفتان، مليئتان بالعطش والثلج والتساؤل، قفزت السمكة عن الشجرة، الغصن يترنح بفعل قوة القفزة، اني أراها جيدا انها تطير، السمكة تطير في الفضاء، الناس تمشي بشكل عادي، السيارات تتحرك، انا ارقص امام بواب الفندق الذي ما زالت نوافذه مغلقة.

* كاتب من فلسطين
Melan_kondaira@hotmail.com
zkhadash@yahoo.com